المحاضرة الأولى مدخل: تاريخ الفكر اللساني -1-

تمهيد

1- الدراسات اللسانية القديمة:

لا يمكن تصور أن مباحث اللسانيين المحدثين والمعاصرين حول الدراسات اللسانية كانت طفرة، وأنها قد انطلقت من عبقرية فذّة وحدها، لم تسبقها محاولات عديدة في دراسة اللغة قديما، على مذهب ما يقوله وايتني Whitney فيما أورده جورج مونان قبل أكثر من قرن عندما قال: "إن علم اللغة هو في جملته من صنع هذا القرن... ولا شيء يستحق الصفة العلمية من النتائج التي توصلت إليها الأبحاث القديمة (السابقة للقرن التاسع عشر) ولا بد أن نؤرخ من هذا القرن البداية الحقيقة لعلم اللغة" **(جورج مونان، تر: نجيب غزاوي34/1982).**

ورغم ذلك نجد أنّ ما ذهب إليه ر.هـ روبنز في مؤلفه موجز تاريخ علم اللغة في الغرب الذي ترجمه الدكتور أحمد عوض – ينمُّ عن موضوعية راقية، وينطبق عليه قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنَ أَهْلِهَا} [يوسف 26]- مخالفا الموقف السابق تماما حينما يقول"وعلم اللغة في الهند يعود لزمن أبعد إلى الوراء من علم اللغة في أوروبا الغربية، وقد حفظ منذ ذلك الوقت عن طريق استمرارية العلم المحلِّي، وقد أنجز مرحلته الكلاسيكية في وقت مبكر من تاريخه، ومع مرور الزمن أصبح الأوروبيون على وعي به" **(ر.هـ. روبنز، تر: أحمد عوض،200/1997)**، بل يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يؤكد بأنّه " كان لدراسة الأوروبيين اللغوية للسنسكريتية أثر مزدوج، فقد شكلت مقارنة السنسكريتية باللغات الأوروبية المرحلة الأولى في التطور المنهجي لعلم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي، إضافة لذلك أصبح الأوروبيون على اتصال في الكتابات السنسكريتية بتراث العلم اللغوي في الهند الذي تطور بشكل مستقل، والذي تم الاعتراف به في الوقت نفسه، وكان تأثيره في كثير من فروع علم اللغة الأوروبي عميقا وباقيا" **(م ن/ 200)**

1-1-لدى قدماء المصريين:

يرجع اعتناء الهنود بالدراسات اللسانية إلى حوالي ما قبل الألف الأولى(10 قرون) قبل الميلاد على ضآلة المعلومات التي استقاها الباحثون، إلا أن فحص الآثار الفرعونية يجعلنا نعرف مشاهير فقهاء اللغة عندهم، حيث عثر- في معجم الحضارة المصرية القديمة (Glossaire de l'ancienne civilisation égyptienne/ Dictionnaire de la civilisation égyptienne / Par Georges Posener ; en collaboration avec Serge Sauneron et Jean Yoyotte) - على مقالة حول اللغة التي ألفها سرج سونرون (Serge Sauneron)، يتضح من خلالها أنه كان لديهم اهتمام كبير بالكتابة، ونسبت إلى الإله "توت"، وهو إله السحر أيضا ولأن الحكم الفرعوني دام فترة طويلة (حوالي 3000 سنة) استقرت الإدارة لديهم كثيرا، واهتموا بالوثائق والسّجلات، وأحسّ كتّابهم بأهمية الكتابة، وعمل وعلى تطويرها. وكانت الكتابة من اهتمام اللغويين المصريين القدامى، وبدأت بالرسوم والنقوش والإشارات الدالة على المعاني المستخدمة في الهيروغليفية القديمة، ثم تطورت هذه الرموز إلى ترميز أي دلالات وكانت عبارة عن نصوص موضوعاتية، بحيث يهتم كل نص بموضوع معيّن **(بول بارجيه، 06/2004)** والتي كانت في البداية رسوما ثم انتقلت إلى الترميز والدلالة، فصارت مثلا الهراوة للضرب، والهلال للشهر، ورأس البقرة فقط للبقرة كاملة إلخ، بعدما كانت الهراوة لوحدها وكذلك الهلال وراس البقرة.

ثم بدأت تصدر عنهم الدراسات اللغوية التي تناولت عدة فروع من الأبحاث اللغوية، فدرس بعضهم ما وصلهم من نتاج أدبي يوناني قديم دراسة فلولوجية التي وجدت في الإسكندرية في وقت مبكر جدًّا وكان هدفها تصحيح النصوص المكتوبة وتفسيرها والتعليق عليها وفي القرن الثالث قبل الميلاد ظهرت شروح على ما كتب هوميروس وغيره من الشعراء. كما وجد أيضا منحى آخر ذو

طابع معجمي اهتم بدراسة المفردات وجمع الألفاظ الصعبة أو الكلمات الشعرية أو الكلمات التي تنتمي إلى لهجات خاصة **(محمود السعران، 351/1997)**، واهتم آخرون بدرس النحو، أما الفريق الثالث فقد اشتغل بوضع المعاجم. ودارت كل هذه الدراسات حول اللغة اليونانية وتركزت جميعها في الاسكندرية.

2-1 -لدى الهنود:

تشير أغلب الدراسات والبحوث اللغوية (**أحمد حساني، 1994/ ص 56-57. وعبده الراجحي، ص 129. وعصام نورالدين، 1992/ ص 02)** إلى أنّ الهنود كانوا من أوائل الأمم في تاريخ الإنسانية التي أولت المسألة اللغوية العناية البالغة، كونها تعود إلى بدايات القرن السابع قبل الميلاد تقريبا، في مختلف مستويات اللغة، إن الباحثين الهنود قاموا بعملية مسح شاملة تقريبا لكل ما يتصل بحقل الدراسة اللغوية الوصفية في الفترة الزمنية التي اشتغلوا أثناءها. **(محمود سليمان ياقوت، 2000/ 16-17 بتصرف)** خدمة للغة السنسكريتية وتشييدها لمنظومتها النحوية الخاصة التي أبهرت اللسانيين المعاصرين من خلال ذلك الابداع اللساني، فحاولوا اتخاذه مرجعا أساسا للتأصيل عليه في دراساتهم اللسانية التالية **(م س ص 18)**

1-2-1-المجالات:

1-2-1 -1-الاهتمام الصوتي:

فقد ترك الهنود ملاحظات جد صائبة في وصف النظام الصوتي للغتهم اعتمادا على مبدأ السماع، بل إن النتائج التي توصلوا إليها تشبه إلى حد بعيد نتائج اللسانيات الحديثة في مجال الصوتيات، ويعتقد بعض الباحثين أن هنري سويت مؤسس الصوتيات الإنجليزية قد بدأ درسه الصوتي من حيث انتهى الهنود، ويؤرخ لهذه الأعمال ما بين 8 ق م و150 ق. **(ميلكا إفيتش، تر: سعد عبد العزيز ووفاء كامل فيد، 2000/ 23)**

(جورج مونان، 65/1972) معتقدين أن الباحث الهندي "بانيني" (Panini) أبا الصوتيات في العالم والذي عاش في (ق 5 أو 4 ق م)، واضع كتاب "المثمّن". **(م ن 22-23)**

بل إن من الباحثين من يذهب إلى أنَّ الإرهاصات الأولى لتبلور المنهج الوصفي كانت على يد هذا الرجل **(كمال بشر، 2005/ 27)** كما نجده يرد ولو بطريق غير مباشر على النفي الذي يتبناه وايتني (Witney) للدراسات اللغوية السابقة عن القرن الذي عاش فيه بالإضافة غلى غيره، **(م ن 27-28)** فقد وصفوا الأصوات اللغوية وصفا جدّ دقيق من ناحية نطقها، بوصفهم للجهاز النطقي بتقسيم أعضاء النطق إلى أعضاء فموية (أسنان، لسان، شفتان)، أو أعضاء غير فموية (قصبة هوائية، رئتان، فراغ أنفي)، ويبدو إدراكهم لأثر هذه الأعضاء في تحديد صفات الصوت اللغوي واضحا فيما وصل من آراء، كما قسموا الأصوات إلى أصوات أنفية وغير أنفية._بسبب وضعية الإعاقة التي تعترض الهواء أثناء النطق مما جعلهم يميزون بين أصوات صوامت وقفية وأنفية واحتكاكية وأشباه صوائت لغة الهند القديمة. وقد تم التمييز بين الجهر والهمس بالرجوع إلى انغلاق أو انفتاح القصبة الهوائية، وإلى جانب هذه الاهتمامات الصوتية ألمع الهنود إلى وجود ثلاث نغمات في السنسكريتية الفيدية وهي النغمة العالية والمنخفضة والهابطة، كما تحدثوا عن المقطع وطول ومدة الصوت أثناء النطق به. **(ينظر: محمود السعران، م س90)** **وكان منهجهم في ذلك** انطلاقهم من أقصى الحلق إلى الشفتين

1-2-3-الاهتمام التركيبي(النحوي): نال هذا الجانب الاهتمام لديهم واختصوا به عن غيرهم، فهم الذين ميَّزوا الفعل عن الاسم وحروف الجر والأدوات المتممة، **(كمال بشر، م س29-31)**

1-3-3-الاهتمام المعجمي فقد أعدّوا " قوائم من الألفاظ الصعبة في النصوص المقدسة القديمة، بشرح معاني هذه الألفاظ، وهو عمل يشبه ما سُمِّي بعدُ معاجم الموضوعات أو معاجم المعاني. حتى وصلوا إلى صنع معاجم منوّعة في موادها وطرائق

ترتيب ألفاظها، وفي أحجامها كذلك." **(م ن، ص 29)** والنتيجة أنها أتاحت الدراسات اللغوية الهندية للأوروبيين الفرصة لإيجاد صلات القربى اللغوية بين السنسكريتية واللغات الأوربية القديمة والحديثة.

1-3-4-الاهتمام الدلالي:

درس الهنود ما يرتبط بعلاقة اللفظ والمعنى أي الصلة بين الكلمة ومعناها **(أحمد مختارعمر، 1998/ 18)** وانقسموا إزاء هذه المسألة فريقين: فريق يرى الصلة بين اللفظ والمعنى طبيعية حتمية، والثاني يراها اصطلاحية اعتباطية، فقد " جذب هذا الموضوع اهتمام الهنود، ربما قبل أن يجذب اهتمام اليونانيين، **(م ن، ص 18-19)**

2-1 – لدى اليونانيين:

فهم أيضا قد درسوا لغتهم -عبر المستويات المختلفة للغة-دراسة صوتية وصفية، وكانت دراستهم هذه للغتهم تكاد تكون متزامنة مع دراسة الهنود. يرى بعض الباحثين **(أحمد مختارعمر، 61. ومحمود السعران، 258)** أن أول مَنْ قسّم الأجناس إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة أو مؤنثة هو السوفسطائي اليوناني الشهير(بروتاغوراس)، إذ قال عنه (ول ديورانت)،(كان من أفضاله الكثيرة إنه وضع أساس النحو وفقه اللغة الأوربيين ويقول عنه أفلاطون أنه بحث في الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ، وإنه كان أول مَنْ قَسّمَ الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة ولا مؤنثة، وأول مَنْ ذكر أزمان الأفعال وحالاتها- إخبارية أو شرطية-) تقسيم (بروتاغواس) هذا للأجناس أخذه أرسطو فيما بعد (لكنه لاحظ أن أفراد النوع الأخير من الناحية النحوية أما مذكرة أو مؤنثة في الإغريقية لذا أقترح تسمية النوع الثالث باسم آخر(المتوسط) وهو يساوي ما يعرف الآن في الدرس اللغوي المعاصر باسم (المحايد).

ثم يأتي دور أفلاطون الذي فرّق بوضوح بين الأسماء والأفعال فهو يعرف الأسماء بأنها الكلمات التي تقوم بوظيفة الفاعل والأفعال هي الكلمات التي تعبر عن الحدث أو الصفة. ويؤخذ على التقسيم أنه دمج الصفات مع الأفعال فهو تصنيف ثنائي يُقسم الكلمات إلى أسماء وأفعال فقط. وظهرت أعمالهم مرتبطة بالفلسفة **(ينظر م س 258)** من خلال ايجاد العلاقة بين الاسم ومعناه على يد فلاسفتهم من أمثال أفلاطون Platon وأرسطو Aristote قبل أكثر من ألفين وثلاثمائة سنة، وذلك عندما لا تعطى تلك الألفاظ والمصطلحات حقها كاملا من الإبانة والتوضيح. في العلاقة الشائكة بين اللفظ والمعنى أو بين الدال والمدلول عبر الدرس اللغوي الحديث، فكلما طرحت مشكلة طبيعة المعنى تطرح معها في الوقت ذاته مشكلة طبيعة التعبير عن هذا المعنى بواسطة اللغة أي الألفاظ، وعندئذ يطرح التساؤل الخالد ما العلاقة بين المعنى واللفظ؟ وهذا راجع إلى ما إذا كانت اللغة تلقائية أم اصطناعية، من عمل الطبيعة أو من فعل الاتفاق والمواضعة بل هي أيضا إلى أي حدٍّ تعكس اللغة الفكر أو تخونه" **(محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، 2005/ 99)** وإننا لنجد هذه الرؤية العلائقية بين الفلسفة واللغة لدى اليونانيين في القرن الأول قبل الميلاد حينما كتب ديونيسيوس Dionysius Thrax أول كتاب متكامل لقواعد اللغة اليونانية والذي بقى مرجعا لفترة تقرب من ألف سنة.

ويعرض التحليل الصوتي لوحدات التقطيع الثاني في حواره كراتيل Cratyle وجاء بعده "أرسطو 384-322 ق.م" وتناول التحليل الصوتي في كتابه "فن الشعر"وعرف الصوت "الحرف" وحدوثه في اللسان والشفتين الخ... غير أن دراسة الإغريق للغتهم كما يزعم جورج مونين كانت تتركز على بنية اللغة ونشأتها ولم تكن هذه الدراسة مهتمة بتطور اللغة وتنوعها. **(ينظر: عبد القادرشاكر، 134/2002)**

وأخيرا يرى بعض الباحثين **(ينظر: محمود السّعران، 86- 98)** أن الدراسة الصوتية عند اليونانيين كانت تهتم بالجانب السمعي للأصوات ودرجات تأثيرها على الأذن ولم يهتموا بالجانب النطقي الفيزيولوجي إلاّ اهتماما ثانوياً، على عكس ما فعله

الهنود وحتى العرب الذين اهتموا بالجاني النطقي إذ درسوا مخارج الأصوات وجهاز النطق وحركات أعضاء النطق، **(ينظر: محمود السّعران، م س 88-89)**

وفيما يتعلق بأسبقية **الدرس البلاغي** على الدرس النحوي وبالعكس فقد كان الدرس البلاغي فيها (الحضارة اليونانية) سابقاً على الدرس اللغوي فقد نظروا إلى الشخص، ورأوا أن البلاغة هي السبيل الذي يحقق به الشخص القناعة فيما يقول تجاه من يخاطب تحقيقا للحجاج.

لقد توصل اليونانيون إلى النتائج نفسها التي توصلت إليها أمم أخرى كالهنود، مثلاً في مدة زمنية أقل من ذلك بكثير، بل أن دراسة اليونانيين للغة كانت منصبة على الجانب الشكلي ولم تكن دراستهم للغة تهتم بالواقع اللغوي الفعلي أو البيئة اللغوية ولهذا فهم لم يدرسوا لغات الشعوب المجاورة بل عدوها شعوباً بربرية وأنها لا تتكلم لغة تستحق الدراسة.

بل انهم لم يدرسوا التطور اللغوي او تأريخ اللغة وتطور مفرداتها وتراكيبها بل كانت عنايتهم ببنية اللغة أكثر من عنايتهم بتطورها وتنوعها كذلك لم يدرسوا لهجات لغتهم نفسها بل أنهم لم يتعرضوا للفروقات بين العامية والفصحى ونتيجة، فدراسة اللغة عندهم لم تهتم بكل المشكلات اللغوية بل اهتمت ببعضها فقط **(الزواوي بغورة، 2005/ 12)**

3-1 لدى الرومان:

تلقف النحويون الرومان لاحقاً هذه الإنجازات وأضافوا إليها أشياء كثيرة تمثلت في تعزيز نحو اللغة اللاتينية التي أصبحت لغة عالمية، وبات ينظر إلى نحوها على أنه نحو عالمي ومثالي كما تعود علاقة الرومان بالدراسات اللغوية إلى الثقافة الهيلينية(*) المرتبطة باليونانين، حيث اخذوا عنهم نظام كتابتهم حوالي القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد والحقيقة أن الرومان قد اعترفوا بقيمة الأعمال الفكرية واللغوية التي وصل إليها سابقوهم من اليونانيين **(Maurice Leroy ,les grands tome 24, 1970 ;p3-13)** فقد أسقطوا (Projecter) الآراء اللغوية اليونانية على لغتهم اللاتينية حينما قاموا بوصفهم لها في دراساتهم المختلفة، فكان الرومان بذلك تلاميذ أوفياء لأساتذتهم الإغريق. ويؤكد ذلك العمل الضخم الذي قدمه اللغوي والفيلسوف الروماني "فارو" (Varro) في كتابه "اللغة اللاتينية" الذي يتكون من خمس وعشرين جزءً وكان تقسيمه الدراسة اللغوية إلى: الاتيمولوجيا والصرف والنحو أبرز ما قدمه هذا العالم والذي مضمونه أنّ في اللغة ثروة مفرداتية ناشئة عن أنواع من الاشتقاق هي التي أنتجت هذا الكم الهائل من الألفاظ، وتغير الصيغ عبر التاريخ عائد إلى الاقتراض اللغوي بين اللاتينية والاغريقية، بل يعود في أساسه إلى أصول أوربية وهذا ما لم يكن معلوما على الاطلاق في تلك الفترة. كما اعتبروا أيضا أن القواعد هي المدخل التمهيدي لفهم الأدب في إطار المعرفة العقلانية حينما ناقشوا نظام الحالة في اللغة اللاتينية والذي يمثله الفعل المضارع **(Louis Kukenheim, 1951-62)** وفي العصر الكلاسي للاتينية كان ظهور النحو التعليمي للغة اللاتينية والذي أخذ الإهتمام التام من حيث تدريسه عبر فترات ممتدة إلى غاية مرحلة القرون الوسطى هذه الجهود عكست المنظومة القواعدية اللاتينية المتأثرة بجهود اليونانين باعتبارهم أنموذجا يجب احتذاؤه، فغلبت بذلك النظرة المعيارية في مجالات الثقافة والفنون والآداب والقواعد كما ظهرت في هذه المرحلة البدايات الأولى للأعمال المعجمية.